مثلت فأتقنت التمثيل

للآنسة سهير القلماوى

لبنانيه فى الآداب

لقد ألفت البكاء بعد فقد وحيدها واستبدلت بالرقص التنهدات وبالغناء النحيب. كانت تعمل فى أحد المسارح راقصة ومغنية، فأصبحت تعمل فى مسرح الحياة ناعجة وباكية.

فى سنة ١٧٧٦ قامت أمريكا تطالب باستقلالها وأعوزتها الجيوش فأرسلت تستنجد فرنسا. أرسلت فرنسا المدد اليها بقيادة القائد لافايت ذلك العظيم الذى أصبح فيما بعد من زعماء الثورة الفرنسية. نالت أمريكا استقلالها وظلت مساعدة فرنسا لها دينا فى عنقها تترقب الفرص للوفاء به. ولكن الاعوام توالت وما زال هذا الدين غلا فى عنق أمريكا.

وفى سنة ١٩١٤ انفجرت الحرب العظمى فى انحاء أوربا وقامت لها الدول وقعدت. وأخيراً أرسلت فرنسا تطالب بدينها وتلح فى طلب المدد. تذكرت أمريكا لافايت وجيشه فارسلت جيشها وفاء دين، وتحية اجلال، لروح ذلك البطل الخالد.

وشاعت الانشودة المشهورة «جئنا اليك يالافايت» فى أمريكا بين صفوف الجند وفى المسارح والمقاهى. أنشدها القوم لحث الشباب على التطوع فى الجيش المرسل مدداً لروح لافايت ممثلة فى فرنسا، ولكم ألهبت تلك الانشودة من قلوب، ولكم أثارت من حمية الشباب ودفعت بهم زرافات الى صفوف الجيش الراحل الى وطن لافايت وفاء دين ورد جميل.

شهرت تلك الام بانشاد هذه الانشودة واشتهر وحيدها بأنه أول من تطوع فى هذا الجيش. كانت الام تغنى تلك الانشودة وهى ترقص رقصة الجندى المقتول — رقصة تمثل وقوع الجندى الباسل فى ميدان القتال فداء الوطن وضحية النصر — فكانت تلهب قلوب المتفرجين حماساً واقداما. وأنشدتها لآخر مرة ليلة رحيل الجيش فى المعسكر، وكان ابنها من اكبر المعجبين بها، والمتحمسين لها. هذه آخر مرة رأت وحيدها وفى الصباح رحل الجيش.

رجع الجيش ولكن وحيدها لم يرجع فقد قتل فى ميدان الحرب شهيدا كما املت عليه تلك الروح التى الهبتها الام بانشودتها. لم يمت فى ساحة الوطن. وانما قتل فى ساحة الوفاء!

وانشد الجند، «جئنا اليك يالافايت» احتفاء برجوعهم الى وطنهم فتقطعت نياط قلب الام حسرة وكمدا. وتمثلت لها الحرب باشنع مظاهرها. فهزأت من الجند الساذج الذى يسير الى الموت فرحا مستبسلا مضللا بكلمات جوفاء كالوطن والحرية والوفاء والشهامة. وازدرت اناشيد الحرب واعلام الحرب، وكل ما يمس الحرب. لانها كلها ليست الا وسائل اغراء الشباب ليقدم على الموت فتنال الامة مطامعها. وهكذا لا بد من ضحايا فى كل فوز، ولا بد من ثمن لكل نصر.

بزغت شمس هذا الصباح فتململت الام فى فراشها وانحدر الدمع على صدرها سخينا ملتهبا فتنهدت قائلة «رباه، أما فى دنياك من جديد؟» ليس هناك جديد لك ايتها الثكلى، فقد حرمت ثمار غرس تعهدته وسهرت عليه فجنى الموت ما كنت اليه تتطلعين، وتمتع الفناء بزهر تعهدته وسقيته دم القلب. ليس لك سوى انشودة تعيدينها ليل نهار هى كل مالك من ذكرى. نعم ليس هنالك سوى اينشودة الذكرى فرديها كلما غنت الطيور، ورديها طلوع شمس ومغربها. رديها مابقى فيك صوت ينشد، رديها، ولتكن آخر ما يسمع من صوتك العذب الرقيق.

صحت الام فى ذلك اليوم يملؤها شعور غنى، انها ستلاقى وحيدها ولكن اين؟ وكيف؟ لا تدرى. لقد دعاها الجند اليوم وتوسلوا اليها لتحضر احتفالهم بمرور عام على وفاة وحيدها. ذهبت ولكنها كانت ذاهلة عن كل ماحولها. يكلمها هذا ويعزيها ذاك فلا تشعر بشىء الا انها ستلاقى وحيدها اليوم.

وعزفت الموسيقى بأنشودة «جئنا اليك يالافايت» فاندفعت الأم نحو المنبر بشعور غريب وبدأت تغنى وترقص رقصة الجندى المقتول، كما كانت ترقصها ليلة ترحيل الجيش. تسمع الجند اليها بقلوب باكية، وعيون ينهمر الدمع منها انهماراً. لقد رأى كل منهم الموت بعينه فابكى، ورأى أصدقاءه يترنحون قتلى فى ساحة الحرب فما ذرفت عينه نصف ما ذرفت لمنظر تلك الأم الثكلى ترقص رقصة تمثل وحيدها يقع قتيلا فى الحرب. سمعوا المدافع والطبول وسمعوا الانين وحشرجة الموت فما هلعت قلوبهم ولا وجلت مثلما وجلت لسماع صوت الأم وهى تنشد أنشودة دفعت ثمنها غاليا.

وترنحت الأم فى رقصتها استعدادا لسقطة الموت الأخيرة — سقطة تمثل سقطة الجندى الباسل مقتولا فى ساحة الحرب. وهنا